(١٢)

سفن النجاة
لقلوب المقابر من هياكل الحياة

حديث الجمعة

٢٥ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ - ١٦ سبتمبر ١٩٦٠ م

هل ترون ما أرى؟ إني أراها، وأدرك معناها، إنها مقابر ومنابر، فألواح ومحابر.. هذه هي الدنيا، تمشي على أرضها المقابر باسم الحياة. ويعلو أهلها المنابر - وهم الموتى - باسم الهداة، يكتبون ألواحهم بأيديهم، من سواد نفوسهم ومحابر ذواتهم، إلى موعدهم من الصبح، يوم تأتي سكرة الموت بالحق مما يحيدون عنه.

إن هذه المقابر إن لاذت إنما تلوذ بمقابر، لأنها لا تعرف الحياة، فتطلب الحياة عند أهل الحياة وبينهم الأحياء يملأ ضوؤهم جميع الأرجاء، ويحيي جميع الأشياء، ويفتح لقارع أبواب الرجاء، ويقدم لمتق المقابل والجزاء.

إن الناس يضعون أصابعهم في آذانهم حذر الموت - وفي الموت حياتهم - إذا سمعوا صوت الحق، وصوت الله، صادرا من قلب صادق، مبعوثا بينهم بالحق من أنفسهم. يتجنبونه، ويختانونه، ويمقتونه، ويخاصمونه. حتى إذا ما غاب من بينهم، وقد كان لهم قبلة.. قبلة حَياة، قبلة مُحيية، قبلة زهراء، قبلة مورقة، فإذا ما غاب وانتهت وظيفته فيهم نعتوه بالخير كله، ووصفوه بما ليس فيه، وأضفوا عليه أكثر مما كان فيه، وأبعدوا عنه من المذموم ما قد يكون فيه.. وجعلوا من قبره قبلة.. وجعلوا من قبره مطافا.. وجعلوا من قبره بيتا لله.. وما بيت الله إلا في قلوبهم.. وما قبر القلوب إلا في ذواتهم. وما يبعث الأحياء فيهم إلا من القلوب، وما يبعثون إلا في مقابر أنفسهم وذواتهم يمشون بها على أرضهم، قلوبا طليقة، ونفوسا عتيقة، وعقولا منيرة، ويدا منبسطة لله، ووجها مشرقا لله، علما على معلوم الحق فيه، والحق منه...

ولكن الناس لا يؤمنون بهذه المقابر حية وهي لهم القبلة الزهراء. ويطلبون الحياة في مقابر هي خلو من أهلها - وإن كان ذكر الله في ذكر أصحابها - فإذا ما قصدوها فتأثرت نفوسهم بقصدهم وأحسوا بأثر

لذلك في قلوبهم ففي هذا يقيم الله عليهم حجته، من أذكر أصحابها إنما هو ذكر له (إن لله عبادا إذا ذكروا ذكر الله)[1]، حتى تستقيم في الله عقائدهم، ويبحثون بينهم في أنفسهم عن رائدهم، عن حوضهم.. عن وجه الله بينهم.. عن كلمة الله من أنفسهم.. لجّوا حول المقابر حتى ذهبت منهم العقول، ومرضت منهم الذوات، واندست النفوس وتعطلت القلوب.. هذا هو حال الناس.. وهذا هو حال أهل الكتاب، من أتباع محمد أو من أتباع عيسى.. أو واهمي المتابعة لمحمد، وواهمي المتابعة لعيسى أو موسى.. حال لا يرضاها العقل ولا يقبلها العاقل. ولا يستقيم معها لمجتمع أمر. ولا يظهر بها في الناس طريق تستقيم عليها أحوالهم.. وتسكن بها نفوسهم.

سبحان الله! إن الله قد خلق الناس معادن -كما أخبر رسول الله - (خيرهم في الجاهلية خيرهم في الإسلام)[2]، وما المعدن في جوهره إلا معدن القلب في مخبره.. أما الذات فهي غلاف لمضغة القلب من نبات الأرض، يقيه شر التلف ليظهر ويعمل القلب من أرض الحق مكنزا به. فكل امرئ منكم قلبه، وليس قالبه من غلاف قلبه.. فإن صلح قلبه ظهرت الصلاحية على غلاف قلبه من جوارحه بفعله وقوله. وإذا استقام قلبه استقامت ذاته ونفسه. وإذا حيا قلبه حييت بالقلب نفسه، وانطلق بالحياة عقله، واستقام وحيا بهذه الحياة عالمه وكونه. إن للقلب مولد من الذات والقالب على ما كان للذات والقالب من مولد. مولد لا يجحد ولا ينكر ولا يجهل عند صاحبه، ولا يدرك ولا يعلم عند مجانبه...

إنك جرم صغير اليوم ولكنك عالم كبير ينتظرك، أنت له نواة وأنت له معاني الحياة. فإن أحييت هذه النواة، فَلقها فالق الحب والنوى من رتقها ثم رتقها من فتقها، فإذا أنت عبد ورب. قلبك ربك وذاتك عبدك. وأنت سر الله ورسوله. وأنت سر الرب وعبده، والعبد وربه.

ما قلبك إلا كعبتك وبيتك، وما عقلك إلا رسول الله إليك منك. وما نفسك إلا المُرسَل إليه يستقيم أو يلتوي على ما يشاء. فأنت بذلك كل شيء.. أنت الحياة.. أنت معالم الحياة.. أنت معارج الحياة.. أنت مظاهر الحياة.. أنت معروف الحياة.. أنت عالم الله.. أنت كون الله.. فيك كرسي الله وعرشه.. وفيك مالك الله وملكه.. فيك وجهه.. فيك المستوي على عرشه.. وفيك قوائم عرشه، وحملة عرشه.. وفيك ملائكته وشياطينه وعباده.. فيك عماؤه ورشاده.. فيك غيبه وشهادته.. فيك حسابه وجزاؤه.. فيك جنته ودار بلائه.. فيك كل شيء...

فهل أخرجت من نفسك شيئا؟ هل أخرجت من نفسك شيئا تشهده بنفسك أو بيقين نفسك؟ هل أرجعت البصر إلى صدرك، ولم ينشرح لك صدرك؟ ولم يتفتح لك صدرك؟ ولم يدانيك لطيف ما

ورائك في صدرك؟ ولم يظهر لك في مرآة صدرك ما في قلبك؟ ولم يشرق بين جوانحك نور ربك؟! فيوضع عنك وزرك، ويكشف عنك غطاء أمرك؟ ...

إنك يا سيدي لم تتجه إلى صدرك! ولم تصدق من وجَّهك إلى صدرك ونفسك! من انشرح له صدره، فأعلم ما كان صدره، ليُعَلِّم الناس ما يكون من أمر صدورهم، وما يصدر عن صدورهم!.. {عليم بذات الصدور}[٣].

إن الذي أرجع البصر كرتين، فانقلب إليه البصر ولم يعرف مما طلب وعمن طلب، إلا ما أحاط به في نفسه.. على ما شاء ربه لم يكذبه فؤاده ولم يخطئه رشاده، فيما رأى وفيما أدرك. فكان بما رأى وكان بما أدرك قاب قوسين أو أدنى ممن عَلَّمه، فكان من علمه. كان من كان بالأفق الأعلى. كان من دنى فتدلى. فقام بدوره فدنا وتدلى، ومن الأرض إلى السماء دنا فتدلى وقد أدرك الحق في نفسه، وقد أدرك الحق في معلمه، وقد أدرك الحق من ربه.. دنت السماء فتدلت، فتوحدت فاتحدت مع نبات الأرض، فتحقق نبات الأرض بمحمد وجوده، وعرف الحق بقيام جوده، فلا أرض لغيره ولا سماء لغيره، ولكن الحق عنده من تحقق. وما دنا مدان للحق إلا في مداناة المتحقق. فما ظهر الحق إلا في الإنسان. وما ظهر الحق إلا للإنسان.

فإنسان الحق يحدد معاني البعد عن الحق في البعد عنه، والقرب من الحق في القرب منه. ويحدد فعل الحق ووصفه، بالمداناة وبالمقاربة، أو بالمجافاة والمباعدة، في مداناته لمن يدانيه بالمحبة، وفي مباعدته لمن يباعده بالمخالفة، وما خوصم الحق إلا في مخاصمة أهله من المتحققين به، وما جوبه بخصومة إلا في مجابهتهم بها.

إن الله يقارب ويباعد، وما قارب وما باعد في الواقع إلا أهل الحق منه. وإن ما قام به الحق إن قام على الأرض فمداناة لأهلها من الحق، وإن غاب إلى أعماقها أو إلى سماواتها فمداناة لعوالم الروح فيها أو لعوالم الروح عليها مداناة من الحق.

فهو إذا عرج إلى السماء فإنه مدان أهلها ونازل عليهم. وإذا داناه أهل السماء من أحبائه وهو على أرضه فمداناة الحق يدانونه وينزلون عليه.

فإذا ما كان وإياهم قاب قوسين أو أدنى.. فقد توحدت فيهما الذوات والمعاني. وتوحدت القلوب والمباني فقامت المحبة والوحدة. فإذا تعنون كل وجه بوجه أخيه قامت المخالة وقامت الرفقة والمرافقة، فالرفيق الأعلى والرفيق الأدنى.. وما رسول الله بين أهله وبين قومه إلا الرفيق الأدنى، وما رفيقه

لقومه إلا الرفيق الأعلى.. وما رفيقه من ربه إلا رسول ربه نزلة أخرى ورفقة أخرى، وما رب رفيقه - وهو ربه - إلا الرفيق الأعلى، من الإنسان لهما...

أما الفهم عن الحقيقة في الفهم عن الله، أو الفهم عن الوجود، أو الفهم عن المطلق، في الفهم عن المعروف، والفهم عن من ليس كمثله شيء، فهذا أمر آخر وشأن آخر وعلم آخر. لا يمنع على الناس ولا يحذر عليهم. ولكنه ليس في دائرة تكليفهم وإن كان في دائرة اعتقادهم وتشريعهم، والأحسن أن يكون في دائرة طلبهم {الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه}[٤] و {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}[٥]، وفي وسعها ما عملت، وفي وسعها ما به انتفعت وله توجَّهت، به يتحدد كسبها ومسئوليتها {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت}[٦].

إن الناس يهدفون بما أودع الله من سر الحياة إلى دنيا يصيبونها، أو إلى آخرة يرجونها، أو إلى إله مجهول يصلونَه. كل في حدود وعيه، وفي حدود شرعته، وفي حدود فطرته، وفي حدود همته.

من طلب العاجلة عجل له فيها ما يشاء الله - في حدود مشيئته وفي حدود قابليته - ومن أراد الآجلة حقق الله له فيها ما شاء وما أراد - في حدود صفائه وسلامة نيته - ومن أراد إلها حقق الله له طلبه - على ما قدر الله، وعلى ما وصف الله، وعلى ما صور الله، وعلى ما نزّه الله - فليره على ما رآه، وليصوره على ما صوره، ما صدق في طلبه. فإن من ليس كمثله شيء متصور على ما صوره، متقدر على ما قدره أي شيء...

أما من طلب الحقيقة، وطلب المعرفة، وعرف أن الله معيته، وأنه عليه قائم، وبه فاعل، وله سامع، فلم يفكر في تغييب الله عنه، ولا عن عالمه، ولا عن عوالم الله، ما أدرك منها وما لم يدرك، فلم يغيبه عن وجوده فيما أدرك من الوجود، فلا يرى في هذا الأمر طلبا يطلب، فإن الله في الصغير كما هو في الكبير من الأشياء، وإن الله في المُشرِق كما هو في المعتم من الأشياء. وإن الله وراء حجبه من النور والظلام، كما هو في حجبه من النور والظلام، وإن الله لا يُطلب.. ففي طلبه حرمانه - لأنه موجود - وإن الله لا يُطلب لأنه عين الوجود، وعين الأشياء، فطالبه مغيبه، ومغيبه مخرج لنفسه منه. والمخرج لنفسه منه مباعد بها عنه. والمباعد بها عنه مهلك لها وراجع بها إلى العدم. إنه راجع بها إلى لا شيء. {أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا}[٧]، فكيف يرجع إلى لا شيء، وقد أصبح شيئا؟ إنه يختار لنفسه الهاوية برجوعه إلى لا شيء، ولكن الحياة في أن يصلح شيئيته، وليعد شيئيته، وليعِبّد شيئيته للأكبر منها من الأشياء. فليعبد نفسه لربه، فليهيئ قلبه لصاحبه ومالكه، فليهيئ نفسه لمبدعها، فليهيئ ذاته لمنشئها، فليرد الأشياء إلى أصولها وإلى حقائقها، فليتكاثر في نوعه،

وليجتمع بنوعه، فليتماسك بلبناته ليرفع بيتا في أرضه، يذكر فيه اسم ربه. وليصَّعد منبرا يعتليه وجه ربه، ولسان ربه، ويد ربه، وعين ربه - ممن هو كل شيء من أنفسهم -.

إذا اتخذ الناس بعضهم بعضا في الله ولله وبالله، ربا وأربابا، لكان كل منهم في عقد الله.. عبد ورب.. رب لمن أحبه وتكفله فرعاه بالسهر عليه، وعبدا لمن خالله فتولاه ورعاه بدوره، فرعى بذلك الكبير صغيره حتى يكبر، والأكبر كبيره حتى يكثر، فتماسك عقد الناس، وتماسك حبل الناس، وتوثقت روابط الناس، وتآلفت قلوب الناس، واتحدت أفئدة الناس، في الله ولله ومن الله، فعنونهم معنون منهم، فأظهر الله لهم من بينهم اصطفاء، وأظهر لهم أنه أتم عليهم نعمته فبسط بهم في الناس رحمته، حوضا لماء الحياة، ويدا منبسطة بالمؤاخاة وبالمحبة للخلاص والنجاة. فكان الناس رب الناس ملك الناس إله الناس.

وهذا ما قام فيه فريق من الناس للناس من قبل محمد ومن بعد محمد. لم يأبه لهم الناس. ولم يؤمن بهم وبإيمانهم الناس. ولم يسلك خلفهم أو مسلكهم الناس، ففريقا قتلوا، وفريقا خاصموا، وفريقا قَلوا وظاهروا، وقلَّ أن تعاملوا فصدقوا، أو تحابوا فتآلفوا، أو توادوا فاتحدوا. وما رحم الله الدنيا وأهلها لأهلها إلا بهم. وما أمهل الله الدنيا على فسادها وشرها بأهلها حتى يستيقظوا بإرادتهم يوما، وحتى يفيقوا إلى أمرهم يوما، إلا بتواجد هؤلاء بينهم. لا ينقطع لهم تواجد، ولا يُخمد لهم خير، ولا يندثر لهم أثر...

وهذه هي عقيدة التشريع لمن تشرع، وعقيدة التبليغ إلى من إليه بَلَغَ. فهل بحث الناس عنهم وهم قبلة صلاتهم، وبيت طوافهم وحجيجهم، ووجه سعادتهم، وماء حياتهم؟

إن الناس يزهدون فيمن يدعوهم لما يحييهم. فإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوه قائما -

قل ما عند الله، قل ما عندي من الله، قل ما أنا من الله خير من اللهو ومن التجارة...

وإنه هكذا يقول كما قال قبل أن يقول في عرف من اعترف بأنه قال. لقد قال على لسان كل نبي وما زال يقول على لسان كل صادق، وعلى لسان كل عبد لله {ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة}[٨].

إن آيات الله بينكم في كل يوم متواجدة بعظة من الله، وبحديث من الله، وببلاغ من الله، وببشرى من الله، وبإنذار من الله.. فهلا رددتم الأمور إلى الله؟

نسأل الله أن يوفقنا أن نرد الأمور إليه، وأن نرجع في الصغير والكبير إليه، وأن نرد النافع والضار إليه. النافع من رحمته والضار من حكمته.

نسأل الله أن يمنحنا سعة الرجاء فيه، وثقة الاعتماد عليه، وصدق القيام بأمره، وصحو الاستماع لقوله.

نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا، وشرور الأشرار من خلقه، وأن يرفع عنا قضاءه بعدله، وأن لا يحرمنا أمره من رحمته. نسأله أن يرزقنا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يرزقنا شهادة أن محمدا رسول الله. فبمنته تقوم الشهادة بوحدانيته، وبرحمته تقوم الشهادة برسالته، وبرسول رحمته. لا إله غيره ولا معبود سواه.

نسأله أن يدفع عنا من البلاء ما نعلم، وما لا نعلم، وما هو به أعلم. نسأله أن يولي أمورنا خيارنا وأن لا يولى أمورنا شرارنا بما كسبنا.

نسأله العفو والعافية في الدين والدنيا، لنا ولأمرائنا، ولأهل الرأي فينا، وإن ضل منهم ضال، وشرد منهم شارد. نسأل الله أن يردنا، ويردهم جميعا إلى حظيرة رحمته، وإلى حظيرة قربه، وإلى حظيرة الرجاء فيه، وإلى ساحة كرمه.

لا إله غيره ولا معبود ســواه.

أضواء على الطريق

(إن الأجسام المادية يجب أن تكون سليمة صحيحة. يجب أن تنبني بما لها حق فيه من تملك حاجيات الحياة، تلك الحاجيات التي يجب أن تكون مجانية، وتحت تصرفها، كما يريد الروح الأعظم. كما يجب بعد ذلك أن تتحرر عقول الناس من العوائق الخرافية باسم العقائد.. تتحرر أرواحهم من سجون ذواتهم، وحتى لا تكون ولايتهم وولائهم لأشياء ليس لها قيمة حقيقية أو روحية.

إننا نبشر بأناجيل الأخوة الروحية بين كل الشعوب، وبأن الروح الأبيض الأعظم هو أب مشترك للجميع. وما يعترض ظهور الطريق، وتعميم الانتفاع بها، هو الآراء الأرضية، والكنائس، والمعاهد التي بنيت على اغتصاب المنفعة، والتجارة في الناس بالاتجار في العقائد والتعاليم لمساندة الظاهرين بالكبرياء والطغيان من الصغار الذين يمسكون بمقبض السوط...)

من هدي السيد الروح المرشد (سلفر برش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ حديث شريف: " إن لله عبادا إذا رُؤوا ذُكر الله." الراوي: الحسن البصري. صحيح ابن ماجه.

٢ حديث شريف: " النَّاسُ مَعادِنُ، خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإسْلَامِ إذَا فَقُهُوا." أخرجه البخاري ومسلم.

٣ سورة فاطر - ٣٨
٤ سورة الزمر - ١٨
٥ سورة البقرة - ٢٨٦
٦ سورة البقرة - ٢٨٦
٧ سورة مريم - ٦٧
٨ سورة الجمعة - ١١